دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	دلالات أسلوب التقديم والتأخير في النسق القرآني
المصدر:	مجلة الدراسات الاجتماعية -اليمن
المؤلف الرئيسي:	الصالح، حسين حامد
المجلد/العدد:	ع 7
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1999
الشهر:	يناير/يونيو
الصفحات:	54 - 76
رقم MD:	27766
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	ألفاظ القرآن، القرآن، اللغة العربية، الجملة العربية، البلاغة العربية، بلاغة القرآن، إعجاز القرآن، علم الدلالة، التقديم والتأخير في اللغة، المجاز اللغوي، معاني القرآن، التراكيب اللغوية ، السياق اللغوي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/27766

© 2016 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دلالات أسلوب التقديم والتأخير في النسق القرآني

د. حسين حامد الصالح

أولاً: التقديم والتأخير مفهومه ودواعيه

من المعلوم أن للجملة العربية نسقاً خاصاً في التأليف ، فالأصل في الجملة الفعلية أن يأتي الفعل أولاً ، فالفاعل ، ثم يأتي بعدهما المفعول إن وجد .

والأصل في الجملة الإسمية أنْ يأتي المبتدأ أولاً ثم يأتي بعده الخبر . فالفاعل متأخر عن الفعل متقدم على المفعول ، والمفعول متأخر عنهما ، والخبر متأخر عن المبتدأ ، والمعمول بوجه عام متأخر عن عامله . هذا هو الأصل في بناء الكلام عند العرب .

ولكن لأسباب بلاغية واعتبارات معنوية ، فإنَّ المتكلّم قد يقدّم في نسق الكلام ما حقّه التأخير ، وقد يؤخر أيضاً في كلامه ما حقّه التقديم ، وذلك لأغراض يريدها ودلالات يقصدها . وفي ذلك يقول سيبويه عن العرب

الأولين إنـــهم: " يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى"[١] . ويقــول الزملكاني في هذا المعنى: " التقدّم في اللسان تبعٌ للتقدم في الجنان "[٢] .

ولكن من العلماء من يرى أنّ التقديم والتأخير ليس إلا أســلوباً مــن أساليب البلاغة جاء به العرب للدلالة على تمكنهم في الفصاحة وملكتهم في الكلام[٣] .

والذي يبدو أن للتقديم أسباباً وأغراضاً معنوية أخرى ، غير الدلالـــة على التمكن من الفصاحة وناصية البيان ، وهي ما سنتعرف عليه في هــذا البحث .

وقد اختلف العلماء في حقيقة أسلوب التقديم والتأخير ، فمنـــهم مــن عدّه من المجاز ، لأنَّ تقديم ما رتبته التأخير كالفاعل أو المفعول ، وتــأخير ما رتبته التقديم كالفعل أو المبتدأ ، نقلُ كلٍّ واحدٍ منها عن رتبته وحقه[٤] .

---

(١) الكتاب لسيبويه ١ / ٣٤ . وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣ / ٢٣٥ .

(٢) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكاني ص ٢٩٠ . وينظر : التبيان في علــم البيان للزملكاني ص ١٤٧ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٣ .

(٤) ينظر : الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن – لابن قيم الجوزية ص ١٢٠ .

وقد ردّ بدر الدين الزركشي هذا المذهب ، وقال: " والصحيح أنه ليس منه ، فإنّ المجاز نقل ما وضع له إلى ما لم يوضع "[١] .

ويظهر أنّ هذا هو المذهب الصحيح ، لأن المجاز كما عرّفه عبد القاهر الجرجاني هو: " كل كلمة أُريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها ، لملاحظةٍ بين الثاني والأول "[٢] . فالمجاز هو نقل الكلمة من المعنى الأول الذي وضعت له ، إلى معنى لم توضع له ، لعلاقة بين المعنيين ، مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأول[٣] .

فالمجاز يتناول أصل الوضع ، أي: المعنى الذي وضعت له اللفظة أو العبارة أولاً ، فإذا نقلت تلك اللفظة أو العبارة إلى معنى جديد بموجب علاقة بين المعنيين الأول الذي نقلت منه ، والثاني الذي نقلت إليه ، فهذا هو المجاز .

أما أسلوب التقديم والتأخير ، فهو ضرب من التصرُّف في طرائق التعبير ، وأفانين القول ، لغرض بلاغي يقصده المتكلم ، وضروب تأليف الكلام ليس فيها ما هو حقيقة أو مجاز ، ونعني بذلك النسق التأليفي المعهود للجملة العربية ، من حيث ترتيب مفرداتها بحسب الوظيفة

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٣ .

(٢) أسرار البلاغة – الجرجاني ٣٠٤ .

(٣) ينظر : المجاز في البلاغة العربية – د. مهدي السامرائي ١١ – ١٧ .

الإعرابية: فعل ففاعل فمفعول ، أو مبتدأ فخبر ، أو التصرف بـــهذا النســق بتقديم أو تأخير .

ولابد من التنبيه ابتداءً إلى أن هذا البحث سوف يتنـــاول بالدراســة أسلوب (التقديم) حسب، وهذا لا يعني أن البحث يغفل الجانب الآخر لـــهذا الأسلوب وهو (التأخير) ، وإنما لما بين هذين الأمرين من تلازم أصبحـــا شيئاً واحداً ، وأسلوباً واحداً ، لأنّ تقديم أي لفظ كان ينبغي أن يتأخر، يعني بالضرورة تأخير لفظ آخر كان ينبغي أن يتقدم بمقتضى النســـق المعـــهود للكلام العربي ، ولكن لغرض بلاغي فإن المبدع أو المتكلم يخرج عن ذلـــك النسق .

ولذلك فإن تقديم المفعول على فعله ، يعني ضرورة تأخير الفعل عـــن مفعوله . وتقديم الخبر على المبتدأ ، يعني ضرورة تأخير المبتدأ عن خبره.

فالحالة الأولى وهي (التقديم) هي الأســـاس ، لأنـــــها أولا هـــي المرادة من قبل المتكلم للدلالات التي تحملها. وثانيا لأنـــها كانت سببا فـــي نشوء الحالة الثانية ، وهي (التأخير) .

فالتأخير حالة نشأت عن التقديم ، فهي تحصيل حاصل ، ولم تطلـــب لذاتها ، لذلك فلا جدوى من الحديث عنها ، إلا إذا طلبت لذاتها ، وتضمنـــت دلالة بلاغية مقصودة من قبل المتكلم .

ثانياً : أنماط التقديم والتأخير

يرى جمهور العلماء الذين ألفوا في إعجاز القرآن أن المعاني تتقدم بواحد من خمسة أشياء[١].

الأول: التقدُّم بالعلّة والسببية[٢]

فالعلة عادة تتقدم على المعلول كما أن السبب يتقدم على المسبب من أجل ذلك فإنّ النظم القرآني قد راعى هذه الناحية بدقة متناهية .

فمن التقدُّم بالسببية قوله تعالى: ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ [فاطر: ٢] ، فقد قدَّم العزيز على الحكيم ، (لأنه عزَّ فلما عزَّ حكم)[٣] .

قال العلوي: " ومن التقدُّم بالسببية قوله تعالى: ﴿ وهو العزيز الحكيم﴾ لأن العزيز هو الغالب ، ولأنه تعالى لما عزَّ في ذاته بالغلبة حكَمَ على كلِّ شيء فلم يخرج عن حكمةِ ملكه خارج"[٤] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، لأن التوبة سبب للطهارة من دنس الآثام[٥] .

---

(١) ينظر : البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٠ ، التبيان في علم البيان ١٤٧، بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٦١.

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٤٧ .

(٣) بدائع الفوائد ١ / ٦٢ . وينظر : الطراز – للعلوي ٢ / ٥٥ .

(٤) الطراز ٢ / ٥٥ .

(٥) ينظر : البرهان – للزملكاني ٢٩١ ، بدائع الفوائد ١ / ٦٢ ، الطراز – للعلوي ٢ / ٥٥ .

ومنه أيضا تقديم المال على الولد في كثيرٍ من الآيـــات ، لأن المـــال سبب تمام النعمة بالولد ، قال العلماء: (لأن الولد بعد وجود المـــال نعمـــة ومسرة وعند الفقر وسوء الحال هم ومضرة) [١] .

الثاني: التقدم بالذات أو بالطبع[٢]

كتقدم الواحد على الاثنين ، ومنه قوله تعـــالى: ﴿ مثنـــى وثـــلاث ورباع﴾ [النساء: ٣] ، وقوله تعالى: ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثـــة إلا هـــو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ﴾ [المجادلة: ٧] ، " وهكذا القول فـــي مراتب الأعداد كلها ، فإن كل واحدة منها سابقة على ما بعدها من المراتـب سبقا ذاتيا "[٣] .

الثالث: التقدم بالفضل والشرف[٤]

ومنه تقديم الأنبياء صلوات الله عليهم على الأتباع ، والعـــالم علـــى الجاهل .

---

(١) بدائع الفوائد ١ / ٦٣ .

(٢) ينظر : البرهان – للزملكاني ٢٩٠ ، التبيان في علم البيان ١٤٧ ، بدائع الفوائـد ١ / ٦٢ .

(٣) الطراز ٢ / ٥٩ . وينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٤٦ .

(٤) ينظر : البرهان – للزملكاني ٢٩٠ ، التبيان في علم البيان ١٤٧ .

وقد جعلوا منه قوله تعالى: ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي﴾ [الحج: ٥٢] ، وقوله: ﴿ وكان رسولا نبيا ﴾ [مريم: ٥٤] ، فقدم الرسول على النبي ، لأنه أفضل من النبي ، لشرف الرسالة[١] .

ومنه تقديم المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى: ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ﴾ [التوبة: ١٧] ، وقوله: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . . . ﴾ [التوبة: ١٠٠] ، فتقديم المهاجرين على غيرهم دل على فضيلة الهجرة ، حتى أن النبي ﷺ قال: (لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار)[٢] .

وجعلوا منه تقديم السموات على الأرض، وتقديم الإنس على الجن، وتقديم الذهب على الفضة[٣].

ومن التقدم بالشرف قوله تعالى: ﴿ فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق ، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ [المائدة: ٦] ، (فإن الوجه أشرف بالنسبة إلى أعضاء البدن ، واليدان أشرف باعتبار الأعمال ، والبدن سابق على عمله ، والرأس أشرف من الرجلين . .)[٤].

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٢ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٦ .

(٣) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٥٧ ، الطراز ٢ / ٦١ .

(٤) البرهان – للزملكاني ٢٩٢ . وينظر : الطراز ٢ / ٦١ ، بدائع الفوائد ١ / ٦٣ .

وقالوا: إن من التقدم بالشرف تقديم السمع على البصر ، وسميع على بصير ، لأن السمع يدرك أخبار الأوائل والأواخر ، ويدرك ما غاب وحضر ، والبصر يتعلق بالحاضر[١] .

الرابع: التقدم بالرتبة

(كتقدم الإمام على المأموم ، والجنس الأعلى على ما تحته) [٢] .

ومنه تقديم (سميع) على (عليم) ، (فإنه يقتضي التخويف والتهديد ، فبدأ بالسميع لتعلقه بالأصوات ، وإن من سمع حسك فقد يكون أقرب إليك في العادة ممن يعلم ، وإن كان علم الله تعلق بما ظهر وبطن)[٣].

جاء في كتاب (بدائع الفوائد) لابن القيم: " ومما تقدم بالرتبة ذكر السمع والعلم حيث وقع ، فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد ، فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات ، فإن من سمع حسك وخفي صوتك ، أقرب إليك في العادة ممن يقال لك إنه يعلم ، وإن كان علمه تعالى متعلقا بما ظهر وبطن ، وواقعا على ما قرب وشطن ، ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم ، فهو أولى بالتقديم "[٤].

---

(١) ينظر : البرهان للزملكاني ٢٩٢ . .

(٢) البرهان – للزملكاني ٢٩٠ . وينظر : التبيان في علم البيان ١٥٠ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٤٩ . وينظر : بدائع الفوائد ١ / ٦٣ .

(٤) بدائع الفوائد ١ / ٦٣ – ٦٤ .

وعلى سبيل المثال لو قلنا لشخص ما كان يذم شخصا آخر أو مسؤولا له عليه سلطة: إن الشخص الذي تذمه موجود في الغرفة المجاورة وقد سمع كل ما قلته فيه ، فإنه سيصاب برعب وجزع شديدين ، ولكن لو قلنا له: إن ذلك الشخص الذي ذممته ، قد علم ما قلته فيه ، فإن خوف هذا الشخص وجزعه ، سيكون أخف بكثير من الحالة الأولى.

ومن هنا جاء السياق القرآني المعجز ، ليقدم ما هو أخطر وأكثر تخويفا وترهيبا لبني البشر وهو السمع على ما هو أقل منه في التخويف والترهيب وهو العلم فتبارك السميع العليم !!!

ومنه قوله تعالى: ﴿ غفور رحيم ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، حيث قدم المغفرة على الرحمة ، لأن (المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة)[١] .

ومن التقدم بالرتبة قوله تعالى: ﴿ يأتوك رجالا وعلى كل ضامر ﴾ [الحج: ٢٧] فالذين يأتون رجالا على الأغلب يكونون من مكان قريب ، أما الذين يأتون ركبانا فالغالب أنهم جاؤوا من أماكن بعيدة[٢] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ [القلم: ١١] ، فقد قدم الهماز على النمام ، والهماز هو العياب ، وذلك لا يحتاج إلى مشي وانتقال،

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٤٩ . وينظر : التبيان في علم البيان ١٥١ .
(٢) ينظر : البرهان – للزملكاني ٢٩١ .

بخلاف النميمة فإنها تقتضي نقل الحديث من مكان إلى آخر ، ومن شخص إلى شخص[١] . (وما كان مجردا فهو سابق بالرتبة على ما كان له تعلقات بغيره)[٢] .

فالأول عذابه أهون من الثاني ، وهكذا يتدرج النسق القرآني بالابتداء من الأقل إلى الأكثر ، وقد يعكس الأمر فيبدأ من الأكثر متدرجا نحو الأقل[٣].

الخامس: التقدم بالزمان

وهو السبق في الإيجاد والخلق ، ومنه تقديم الليل على النهار ، قال تعالى: ﴿ بل مكر الليل والنهار ﴾ [سبأ: ٣٣] ، (فإن الظلمات سابقة على النور في الإحساس ، وكذلك الظلمة المعنوية سابقة على النور المعنوي)[٤]. قال العلوي في تعليل ذلك: (لأن العدم بلا أول ، والوجود يتلوه وهكذا القول في الظلمة المعنوية ، لأنها إذا أريد بها الجهل والكفر فإنها تكون سابقة على النور المعنوي ، وهو العلم والإسلام)[٥].

---

(١) البرهان للزملكاني ٢٩١ . وينظر : بدائع الفوائد ١ / ٦٢ .
(٢) الطراز ٢ / ٦٠ .
(٣) ينظر : التعبير القرآني – د. فاضل السامرائي ٥٥ .
(٤) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٤٠ . وينظر : بدائع الفوائد ١ / ٦٢ .
(٥) الطراز ٢ / ٥٨ .

وجعلوا منه تقديم (السنة) على (النوم) في قوله تعالى: ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، لأن العادة أن تأخذ المرء السنة قبل النوم[١] .

ومن التقدم بالزمان ، تقدم زمان الإنزال كقوله تعالى: ﴿ وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان ﴾ [آل عمران: ٣-٤]، فقد رتبت هذه الكتب السماوية ، على حسب التسلسل التاريخي في إنزالها[٢] .

وجعلوا من التقدم بالزمان أيضا تقديم عاد على ثمود[٣] ، قال تعالى: ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم ﴾ [العنكبوت: ٣٨] ، فقوم عاد أقدم من قوم ثمود تاريخيا .

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، فخلق الجن قبل خلق الإنس ، فذكر الجن أولا ثم ذكر الإنس ثانيا ، لأنهم خلقوا بعدهم[٤] .

---

(١) نفسه ٣ / ٢٣٩ .

(٢) نفسه ٣ / ٢٤٤ .

(٣) ينظر : بدائع الفوائد ١ / ٦٢ ، الطراز ٢ / ٥٨ .

(٤) ينظر : التعبير القرآني ٥١ .

هذه هي الأنماط الخمسة للتقديم والتأخير ، التي يكاد ينعقد إجماع العلماء عليها . وقد ذكر بعض العلماء أنماطا أخرى للتقديم والتأخير ، لكنها في حقيقتها تندرج تحت هذه الأقسام الخمسة.

فمنهم من ذكر التقديم للغلبة والكثرة ، والتقديم لسبق ما يقتضي التقديم ، والتقديم للترقي والانتقال من الأقرب إلى الأبعد أو بالعكس[١] ، والتقديم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفاصلة[٢] ، أو التقديم للتعظيم والاهتمام[٣]. ومنهم من ذكر التقديم بحسب الأهمية[٤] .

والحقيقة أن بعض هذه الأنواع تنضوي تحت الأقسام الرئيسة السابقة، وبعضها الآخر هي في حقيقتها أغراض للتقديم والتأخير وليست أقساما له ، وسنذكر أهم هذه الأغراض في القسم الآتي من هذه الدراسة .

وهناك ملاحظة لابد من الإشارة إليها وهي أن الأنواع الخمسة المتقدمة للتقديم والتأخير ، هي في حقيقتها أسباب وعلل للتقديم والتأخير ، فإذا وجد سبب واحد منها كان هناك تقديم وتأخير ، وقد يجتمع في الحالة الواحدة علتان أو أكثر للتقديم ، عند ذلك يكون التقديم واجبا . قال ابن

---

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ .
(٢) نفسه ٣ / ٢٣٤ .
(٣) نفسه ٣ / ٢٣٥ و ٢٥١ . وينظر : الفوائد المشوقة ١٢٠ .
(٤) ينظر : الطراز ٢ / ٦٢ .

القيم: "وربما قدم الشيء لثلاثة معان وأربعة وخمسة وربما قدم لمعنى واحد من الخمسة"(١).

ثالثا : أغراض التقديم والتأخير

ثمة أغراض بلاغية كثيرة متعددة لأسلوب التقديم والتأخير في نسق الكلام العربي ، وهذه الأغراض هي في حد ذاتها دلالات ، ومن هنا يكون أسلوب التقديم والتأخير مصدرا مهما لأنماط من الدلالات المختلفة والمتنوعة في التعبير العربي ، التي قد لا يتضمنها أسلوب آخر من أساليب العربية ، وهذا يغني الدلالة ويثريها بألوان جديدة من التعبير ، وأنماط بديعة من البيان .

وهذه الأغراض كثيرة جدا ، وهي مرتبطة بالسياق ، وبالمعنى الذي يقصد إليه المتكلم ، لذلك فإنه لا يمكن حصرها جميعا وتبويبها في دراسة بهذا الحجم ، وإنما نقتصر على الأغراض الرئيسة منها ، وأهم هذه الأغراض هي:

١- التقديم للاهتمام:

لقد ذكرنا آنفا قول سيبويه في أن العرب يقدمون في كلامهم ما هم ببيانه أعنى ، وما هو أهم لديهم ، وقد شفعه بقول في موضع آخر أيضا فقال: " والتقديم ههنا والتأخير فيما يكون ظرفا أو اسما ، في العناية

(١) بدائع الفوائد ١ / ٦٣ .

والاهتمام . . . وجميع ما ذكرت لك من التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير "[1] .

فما كانت عناية المتكلم به أكبر قدمه في كلامه ، والعناية تكون بحسب مقتضى الحال ، فالمتكلم يقدم لفظة في موضع قد يؤخرها في موضع آخر، لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذلك.

وعلى هذا النهج جاء النسق القرآني ، فإننا نجده يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى بحسب المقام ، فنجده مثلا في الغالب يقدم السماء على الأرض ، ونجده أحيانا يقدم الأرض على السماء، وكثيرا ما يقدم الجن على الإنس ، ثم نجده يقدم الإنس على الجن في بعض المواضع ، ومثل ذلك يقال: في تقديم النفع على الضر ، أو تقديم الضر على النفع ، كل ذلك بحسب ما يقتضيه السياق والمقام .

ولكن هل يكفي تفسير أسباب التقديم في هذه المواضع ، بالقول: إنما قدم ما قدم للاهتمام ! إن ذلك لا يكفي ، لأن اللفظة الواحدة تقدم حينا وتؤخر حينا ، فلا يكفي أن نقول إنه قدم السماء على الأرض في كثير من الآيات للاهتمام بالسماء ، لأنه أيضا قدم الأرض على السماء في بعض الآيات ، فهل نقول أيضاً إنه قدم الأرض لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر ؟!!

([1]) الكتاب ١ / ٥٦ .

فلابد من تقصي أسباب الاختلاف في الموضعين ، والوقوف على الحكمة في تقديم ما قدم وتأخير ما أخر ، وهذا ميدان خصب للدلالة .

قال الزركشي في بعض أحوال التقديم إنما يقدم المقدم: " لعظمه والاهتمام به، وذلك أن من عادة العرب الفصحاء ، إذا أخبرت عن مخبر ما، وأناطت به حكما ، وقد يشركه غيره في ذلك الحكم . . . فإنهم مع ذلك إنما يبدؤون بالأهم والأولى . . . "[1] وضرب مثالا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ [المزمل: ٢٠] ، وقال: " فبدأ بالصلاة لأنها أهم "[2] ومنه قوله تعالى: ﴿ وأطيعوا الله والرسول ﴾ [آل عمران: ١٣٢] .

ومن أمثلة التقديم للتوجيه والاهتمام ، قوله تعالى: ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ﴾ [الضحى: ٩-١٠] ، فاليتيم والسائل ضعيفان ، فقدّمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما[3] .

٢- التقديم للاختصاص:

وهذا الغرض كثيراً ما يكون في باب تقديم المفعول به على فعله ، لأن هذا الضرب من التقديم في الغالب يفيد الاختصاص، ومنه قوله تعالى:

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٣ .

(٢) نفسه ٣ / ٢٣٥ .

(٣) ينظر : التعبير القرآني ٥٠ .

﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ [الفاتحة: ٥] ، فقدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة ، لأن العبادة والاستعانة مختصان بالله تعالى فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان بأحدٍ سواه[١].

ومنه قوله تعالى: ﴿ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ﴾ [الزمر: ٦٦]، فقدّم المفعول به على فعل العبادة ، لأن العبادة مختصة بالله تعالى[٢] .

ومن هذا التقديم الذي يفيد الاختصاص تقديم الخبر على المبتدأ كما في قوله تعالى: ﴿ وظنوا أنَّهم ما نعتهم حصونهم من الله ﴾ [الحشر: ٢] ، (فإنما قدم قوله ﴿ مانعتهم حصونهم من الله ﴾ وهو خبر المبتدأ في أحد وجهيه ليدلَّ بذلك على فرط اعتقادهم لحصانتها ، ومبالغة في شدة وثوقهم بمنعها إياهم ، وأنهم لا يبالون معها بأحد ، ولا ينال فيهم نيل ، وفي تقرير ضمير (هم) اسماً ، وإسناد المنع والحصون إليهم ، دلالة بالغة على تقريرهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة ، لا ترمى حوزتهم ، ولا يغزون في عقر دارهم ، ولو أُخِّر الخبر لم يعط شيئاً من هذه الفوائد)[٣] .

ومن هذا التقديم قوله تعالى: ﴿ أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم ﴾ [مريم: ٤٦] ، (فإنما قدّم خبر المبتدأ ، ولم يقل (أنتَ راغبٌ) ليدلَّ بذلك

---

(١) ينظر : الطراز ٢ / ٦٦ ، الفوائد المشوقة ١٢٠ ، التعبير القرآني ٤٨ .
(٢) ينظر الطراز ٢ / ٦٦ .
(٣) الطراز ٢ / ٦٨ .

على إفراط تعجبه في الميل عنها ، ومبالغة في الاهتمام بأمرها ، وواضعاً في نفسه أن مثل آلهته لا تنبغي الرغبة عنها ولا يصح الإعراض عن عبادتها)[1] .

ومن أضرب التقديم التي تفيد الاختصاص ، تقديم الجار والمجرور على فعله ، من مثل قوله تعالى: ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ [إبراهيم: ١٢] ، ﴿ على الله توكلنا ﴾ [الأعراف: ٨٩] ، ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [هود: ٨٨] ، (فقدّم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص ، وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده ، والإنابة ليست إلاّ إليه وحده)[2] .

ومنه قوله تعالى: ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ [الشورى: ٥٣] ، والمعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره[3] .

ومن أمثلة تقديم الجار والمجرور على الفعل وتأخيره عنه ، قوله تعالى: ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ [الملك: ٢٩] فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وأخرَّ (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) ، وذلك أن (الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله ، بل لابد

---

(١) نفسه ٢ / ٦٩ .

(٢) التعبير القرآني ٤٨ .

(٣) ينظر : الطراز ٢ / ٧٠ .

من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره ، مما يتوقف صحة الإيمان عليه . بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين ، قدم الجار والمجرور فيه، ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضرا ولا نفعا فيتوكل عليه)[1].

وقد يقدم الظرف للغرض ذاته ، من مثل قوله تعالى: ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ [لقمان: ٣٤] ، فعلم الساعة ، مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ، ولإفادة هذا المعنى قدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ[2] .

ومن أمثلة تقديم الظرف لإفادة الاختصاص ، قوله تعالى: ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، فقدّم الظرف الذي هو خبر للمبتدأ (مفاتح الغيب) ، وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب .

٣- التقديم للتفضيل:

قال ابن القيم: " وأما إذا كان الظرف في النفي ، فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه ، كما في قوله تعالى: ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ [الصافات: ٤٧] ، أي: ليس في خمر الجنة ما في خمر غيرها من الغول "[3] .

---

(١) البرهان في علوم القرآن ٢ / ٤١٢ .

(٢) ينظر : التعبير القرآني ٤٩ .

(٣) الفوائد المشوقة ١٢٢ .

٤- التقديم لزيادة المعنى:

وجعلوا منه تقديم الخبر على المبتدأ في بعض المواضع ، من مثل قوله تعالى: ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ [الأنبياء: ٩٧] ، ولم يقل (فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة) ، قال العلوي في (الطراز): " فعل ذلك لأمرين أولا: فلأنه إنما قدم الضمير في قوله: (هي) ، ليدل به على أنهم مختصون بالشخوص دون غيرهم من سائر أهل المحشر .

وأما ثانياً: فلأنه إذا قدم الخبر أفاد أن الأبصار مختصة بالشخوص من بين سائر صفاتها ، من كونها حائرة أو مطموسة أو مزورَّة إلى غير ذلك من صفات العذاب ، ولو قال: (واقترب الوعد الحق فشخصت أبصارهم) ،لم يعط من هذه الأسرار معنى واحداً "[١] .

٥- التقديم للتبكيت والتعجب:

ومنه تقديم المفعول الثاني (شركاء) ، على الأول في قوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجن ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ، وقدّم لأن المقصود بذلك التوبيخ والتبكيت ، والتعجب من فعلهم الشنيع[٢] .

---

(١) الطراز ٢ / ٦٩ . وينظر : الفوائد المشوقة ١٢١ .

(٢) ينظر : البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٣٣ .

٦- التقديم للتعظيم:

ومنه قوله تعالى: ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ [النساء: ١٣] ، فقدم لفظ الجلالة للتعظيم ، وكذلك في قوله تعالى: ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبي ﴾[١] [الأحزاب: ٥٦] .

٧- التقديم لإفادة المدح والثناء:

ومنه قوله تعالى: ﴿ ووهبنا له اسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ﴾ [الأنعام: ٨٤] ، فقوله تعالى: ﴿ نوحا هدينا ﴾ ، لا يفيد الاختصاص ، فليس المقصود أن الله - سبحانه - لم يهد إلا نوحا ، وإنما هو من قبيل المدح والثناء[٢] .

٨- التقديم لمناسبة رؤوس الآي:

ومنه قوله تعالى: ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ [القيامة: ٢٢] ، فقدم الجار والمجرور على (ناظرة) ، وقد أفاد هذا التقديم معنيين:

الأول: هو الاختصاص ، أي أن نظرها لا يكون إلا إلى الله تعالى .

والثاني: مراعاة الفاصلة القرآنية ، فأفاد في جودة انتظام الكلام[٣] .

---

(١) ينظر : نفسه ٣ / ٢٥١ .

(٢) ينظر : التعبير القرآني ٥٠ .

(٣) ينظر : الفوائد المشوقة ١٢١ .

ومنه قوله تعالى: ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ [القيامة: ٣٠] ، أفاد تقديم الجار والمجرور (إلى ربك) معنيين أيضاً هما: الاختصاص أي أن المساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى سواه . والثاني: من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي[١] . وقد قصره بعضهم على المشاكلة حسب[٢].

والحقيقة أنَّ هذا الغرض يندرج ضمن الغرض الثاني وهو الاختصاص، ولو كان المقصود به المناسبة فقط لما ذكرناه ، لأن المناسبة مسألة لفظية ، لها دلالاتها الخاصة .

وهناك أغراض كثيرة ، وأنماط مختلفة للتقديم والتأخير يحددها السياق والمناسبة، يضيق المجال عن استقصائها جميعاً ، لأنها – كما أسلفنا – تتعدد بتعدد السياقات ومقتضى الحال . وربما اندرج قسم منها تحت واحدٍ من هذه الأغراض المذكورة ، أو تفرع عنها .

ويمكننا القول بعد هذا الإلمام المناسب بمفهوم التقديم والتأخير ، وبأنماطه وبأغراضه: إنَّ هذا الأسلوب القرآني نبعٌ غزير للدلالات ، والأغراض التي يقصدها المتكلم من الأخذ به ، فتقديم لفظ على آخر يغني عن دلالات ومعاني كثيرة ، يبغي المتكلم إيصالها إلى سامعه.

---

(١) ينظر : التعبير القرآني ٤٩ .

(٢) ينظر : الطراز ٢ / ٧١ .

كما أنَّ تلك الدلالات قد تنوعت وتعددت لتناسب السياقات والمقامات المختلفة والأحوال المتباينة . . . فلكل سياق أو مقام ما يقتضيه من تعبير . . . فالاختصاص والاهتمام والتفضيل والتبكيت والتعظيم ، والثناء ، ومناسبة الإيقاع الموسيقي ، كلها دلالات أفادها أسلوب واحدٌ هو: التقديم والتأخير .

ويمكننا كذلك باستقراء هذا الأسلوب القرآني ، أن نتلمس المعاني الجديدة المستقلة التي ارتبطت بكل سياق .

ونأمل من وراء هذه الدراسة الموجزة ، أن نكون قد خرجنا بتصور علمي واضح عن هذا الأسلوب ، وبعض دلالاته في النسق القرآني ، من أجل أن تنهض دراسات علمية موسعة ، لتغني الجوانب الأخرى التي لم يتسع هذا البحث للوقوف عليها ، ولتجعل من هذه الإشارات العجلى ، معالم مضيئة لدراسة أساليب قرآنية أخرى ، لم تزل بحاجة إلى كثير من التدبر والبحث العميق .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .
٢- أسرار البلاغة في علم البيان - عبد القاهر الجرجاني - تحقيق: محمد رشيد رضا - دار المطبوعات العربية - (د . ت) .
٣- بدائع الفوائد - ابن قيم الجوزية - نشر دار الرياض الحديثة - الرياض (د . ت) مصورة عن طبعة المنيرية بمصر (د.ت) .
٤- البرهان في علوم القرآن - بدر الدين الزركشي - تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٧م .
٥- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - للزملكاني - تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي - مطبعة العاني - بغداد .
٦- التبيان في علم البيان - للزملكاني - تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي -مطبعة العاني- بغداد .
٧- التعبير القرآني - د. فاضل السامرائي - بغداد .
٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز - يحيى بن حمزة العلوي - تحقيق: سيد بن علي المرصفي .
٩- الكتاب - لسيبويه ، عمرو بن عثمان - تحقيق: عبد السلام هارون - الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٨٨م .
١٠- المجاز في البلاغة العربية - د. مهدي صالح السامرائي - دار الدعوة - حماة - سورية - الطبعة الأولى ١٩٧٤م .